

خبر المدرسة في تعليم المواطنة - بين التصور والممارسة -

أ. قصير محدي
المركز الجامعي أحمد زبانه - غليزان

- مقدمة:

يمثل المجتمع المدني بالنسبة للمواطنة المجال الحيوي لممارسات هذه المواطنة وتجلياتها، وبالمقابل فإن المدرسة هي المؤسسة الحيوية التي تتعلم عبرها وفيها مبادئ المواطنة وأشكال ممارستها. وعليه فإن الإشكالية المحورية التي يعالجها هذا المقال مؤداه: ما هو دور المدرسة في تعليم المواطنة؟ وما هو دورها في التأسيس لمجتمع مدني حي؟ وما مدى التوافق بين التصور النظري لمفهوم المواطنة وممارسة هذه المواطنة في المدرسة الجزائرية؟.

عبر طيات هذه الأوراق سنحاول الإجابة المنهجية على هذه التساؤلات السوسولوجية من خلال تحليل مفهوم المواطنة، ومن ثم نعرض على تصوّر المناهج الدراسية لأشكال وطرق تعليم المواطنة، معتمدين في ذلك على الأخذ بمادتي التربية المدنية والتربية الإسلامية كنموذجين للتحليل والقراءة، ثم نختم موضوع مقالنا بنقد وتحليل موضوعي، مع مجموعة من الاستنتاجات العلمية لإثراء البحث والقراءة حول الموضوع.

2- مفهوم المواطنة :

يتجلى مفهوم المواطنة منذ الحضارة الإغريقية القديمة، فالمواطن في أثينا القديمة هو الذي يشارك في شؤون المدينة والشؤون العامة، والذي يكون مرة حاكما ومرة محكوما؛ ولكن هذه المواطنة العتيقة لم تكن تأخذ بعدا عالميا؛ بل حتى في موطنها الأصلي - اليونان - لم تكن متاحة لكل الناس، إنما هي خاصة بقلّة قليلة منهم؛ أما المواطنة في الفترة الحديثة فقد ظهرت كصطلح في اللغة الفرنسية سنة 1783م (Robert, 1998: 320) وهي مأخوذة من كلمة مواطن وتعني صفة المواطن الذي ينتمي إلى وطن معين، ثم تطوّرت لتمثل فيما بعد هيكل قانوني لمجموع الحقوق المدنية والسياسية كما ورد في أدبيات الثورة الفرنسية سنة 1789م، خاصة في إعلان حقوق الإنسان والمواطن الصادر عن هذه الثورة آنذاك (Etienne, 1997: 70-71).

لكنّ المواطنة المعاصرة أخذت بعدا عالميا أكثر، بل أصبحت تمثل ثورة عالمية لتحريك قيم العدالة والمساواة والحرية؛ فالإنسان أصبح مواطنا عالميا مزودا بحقوق طبيعية مقدّسة لا تقبل التصرف والتجزئة، وبذلك فإن تعريف المواطنة يكاد أن يكون واحدا في كل مجتمعات العالم، مع مراعاة كل من النموذجين الفرنسي والأمريكي لمداول المواطنة. فالنموذج الفرنسي للمواطنة يتأسس على البعد الاجتماعي لها، حيث أن الفرد من حيث عضو في جماعة يصبح من واجبه التزام قيم هذه الجماعة ومبادئها كما أن المجتمع هو من يتحكم في الفرد وينظم حياته

وسلوكياته، وهذا ما يجعل مفهوم المواطنة في الفكر الفرنسي متأثرا بفلسفة "دوركايم" حول الضمير الجمعي؛ أما عن النموذج الأمريكي للمواطنة فإنه يتبنى الرؤية الفلسفية التربوية للمفكر التربوي "جون ديوي"، حيث أن البعد الاقتصادي الإنتاجي والمبادرة الفردية هما أساس انتاء المواطن إلى وطنه.

وهكذا فالمواطنة هي التمتع بكافة الحقوق المدنية والسياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية مقابل أداء واجبات مختلفة ضمن وطن الانتماء؛ وهي بذلك تمثل التزاما متبادلا بين الدولة المعاصرة ومواطنيها، دون أن نهمل مفهوم المواطنة العالمية الذي يلزمنا باحترام قيم عالمية والتمسك بها كالدفاع عن البيئة مثلا ومواجهة الأخطار المحدقة بكوكبنا، وهذا مقابل حقوق عالمية كالسلم والحرية وتبادل الخبرات العلمية، وما يفرضه ميثاق الأمم المتحدة من التزام منوط بهذه الهيئة العالمية تجاه كل إنسان في العالم.

إن المواطنة تأخذ بالثقافة الوطنية وقيم المجتمع المحلي كأسس لتنشئة مواطن ملتزم اجتماعيا وثقافيا تجاه الأمة ولكن دون تعصب أو شوفينية ضيقة؛ فالمجتمع المدني يتأسس على قيم التنمية والحداثة والتطور، وخاصة مفهوم التنمية البشرية وبذلك تصير المواطنة أحد عناصره الحاسمة، فالمواطنة هي ثقافة وسلوك وعلاقات متشابكة في اتجاهين مختلفين، أفقيا بين المواطنين أنفسهم وعموديا بين المواطنين والسلطة الحاكمة.

ومن هنا تتكامل المؤسسات الاجتماعية الرسمية وغير الرسمية لتشكيل هوية المجتمع وصياغة توجهات أفرادها في شتى النواحي، وتعد الأسرة هي المحتضن الأول الذي يباشر التنشئة الاجتماعية المتأسسة على غرس قيم المواطنة ومفرداتها منذ اللحظة الأولى للوجود وتأتي بعدها المدرسة كمؤسسة رسمية لتبلور هذه القيم وتعزيزها؛ فهي التي تغرس قيم وتوجهات الدولة والمجتمع في نفوس المتدربين، وتعمل مع المؤسسات الأخرى لتحقيق ذلك.

ففي الجزائر أصبحت المواطنة موضوعا محوريا في أدبيات المناهج الدراسية في ظل إصلاحات تربوية شاملة، ترمي إلى إحداث تغييرات جذرية على هذه المناهج من حيث الطرق التربوية ومحتوى البرامج، أي شكلا ومضمونا.

وإذا كان التعليم الرسمي في بداياته الأولى قد ارتكز على تكريس إيديولوجية السلطة الحاكمة، وجعل المدرسة كجهاز قمع ثقافي لتحقيق الخضوع والولاء للدولة حسب مفهوم (L. ALTHUSSER)؛ فإن المدرسة العالمية المعاصرة قد تجاوزت هذا المفهوم، لتصبح مؤسسة ذات بعد حضاري وثقافي يتأسس على قيم ثابتة تنخرط ضمن سياق العولمة الثقافية والاقتصادية والسياسية، مع الأخذ بعناصر الثقافة الوطنية

تمثل في: - التعرف على حقوق الإنسان وممارستها- معرفة مؤسسات الدولة وقوانينها - فهم قواعد الحياة الاجتماعية والسياسية - تنمية الإحساس بالمسؤولية الفردية والجماعية - التعرف على آليات المؤسسات الإقليمية والعالمية (منهاج السنة الأولى ت م، 2003 ص: 43).

إن كل هذه الأهداف ترتبط بشكل مباشر بمفهوم المواطنة في بعده الوطني والعالمي؛ هذه المواطنة التي يعرفها كتاب السنة الأولى متوسط على أنها الاستفادة من الحقوق وأداء الواجبات من قبل المواطن الذي ينتمي إلى وطن معين؛ وفي سياق غامض يربط نفس هذا الكتاب المواطنة بالجنسية، التي وحسبه يؤدي اكتسابها إلى التحلي بصفة المواطنة (كتاب التربية المدنية للسنة 1م، 2004: ص 63-65).

إن تصور المنهاج الدراسي لمادة التربية المدنية لمفهوم المواطنة ينطلق من محاولة الدمج بين ما هو وطني محلي وما هو عالمي، لبناء ثقافة سياسية اجتماعية ووعي مدني يأخذ بالأصالة ويتفاعل مع قيم المعاصرة، فإذا عن منهاج التربية الإسلامية؟.

ب- التربية الإسلامية :

تناول التربية الإسلامية في المستويين الابتدائي والمتوسط التركيز على التكوين الروحي والاجتماعي للمتعلمين، من خلال دروس الإيمان وشروطه ومظاهره الأخلاقية، والتكوين الاجتماعي كقيم العمل، الأسرة، التضامن، التكافل الاجتماعي، وعلاقة المسلم بالمسلم، أي العلاقات الاجتماعية، كما تسعى هذه المادة إلى تكريس قيم التسامح والعفو والعدالة والتعلق بالسلم بأبعاده المحلية والعالمية.

إن الهدف من تدريس مادة التربية الإسلامية كما ورد في أحد المناهج الدراسية: "أن تجعل من الدين والقيم الموروثة في المجتمع الجزائري الأساس الذي يبنى عليه كيان التلميذ، حيث تظهر آثار ذلك في سلوكه ومعاملاته مما يحقق التوافق الاجتماعي" (منهاج السنة الأولى م، 2003: ص 17).

إننا نلاحظ في هذا النص ذلك الدمج بين القيم الدينية والقيم الاجتماعية الموروثة لتحقيق الانسجام والتوافق الوطني، وهذا مرتبط بتكوين مواطن صالح وخلق وملتزم بالقيم السائدة ومكرسا لها، مما يعني بناء مواطنة على أسس أخلاقية دينية متفتحة، حيث يذكر منهاج التربية الإسلامية أن من أهداف هذه المادة الإعداد لأداء الواجبات نحو الخالق ونحو النفس والأسرة والمجتمع و التفاعل مع قضايا الأمة وقضايا الإنسانية النبيلة، وهنا نشير إلى البعد العالمي للمبادئ الأخلاقية كما تتصورها المنظومة التربوية الوطنية.

إن تربية المواطنة حسب ما يتصورها منهاج التربية الإسلامية تتأسس على معيار "احترام المبادئ الدينية والقيم الاجتماعية وحرية التفكير والتعبير في إطار الالتزام الأخلاقي والاجتماعي" (بن معجب الحامد، ALTALABA.COM، 2007: ص 03)؛ وبذلك فهي تهدف إلى تمكين الناشئة من فهم أنفسهم ومحيطهم والعالم الذي يعيشون فيه وفهم ثقافتهم مع احترام ثقافة الآخرين.

الأصيلة؛ فهي بذلك مؤسسة للمجتمع الكلي وليست مجازا حكوميا بإيديولوجية محددة.

وضمن هذا السياق سنحاول فيما بقي من هذا البحث تحليل مضامين المناهج التربوية من خلال ارتباطها بمفهوم للمواطنة كموضوع للقراءة والتحليل، آخذين بعض المواد الدراسية كنموذج لذلك.

تصور المناهج الدراسية للمواطنة:

إن وظيفة المدرسة في المجتمع تأخذ بعدين أساسيين: البعد العلمي التقني، حيث تُعلم المهارات والخبرات العلمية والتقنية، والبعد التربوي الأخلاقي الذي يعني اكتساب القيم والسلوكيات المناسبة والضرورية لاستمرار النظام الاجتماعي وتناسقه؛ وفي هذا البعد الأخير يندرج مفهوم التربية على المواطنة، الذي يتكسر في العديد من المواد الدراسية.

إن مادي التربية المدنية والتربية الإسلامية (أو الخلقية) تمثلان بصدق مشروع بناء المواطنة الفاعلة عن طريق المدرسة، فالتربية عموما: "تعتبر إحدى الوظائف المهمة للوعي وشروطا ضروريا لاستمرارية الحياة الاجتماعية؛ فهي التي تنقل الأفكار والرؤى والتصورات والأفعال والعادات المنطقية والاتجاهات الأخلاقية والمعارف النظرية والتقنية والمهارات من جيل إلى جيل" (بورديو، 1990: 81).

وبذلك فالمدرسة تقوم بأدوار مختلفة تؤكد على خاصيتها الاجتماعية والثقافية فهي تكرر القيم السائدة وتساهل العصرية والتغيير.

أ - التربية المدنية :

أصبحت مادة التربية المدنية إجبارية وضرورية في المراحل الأولى من التعليم (ابتدائي ومتوسط) كما أدرجت تغييرات عميقة على محتوى البرامج الدراسية لهذه المادة؛ ففي حين كانت في السنوات السابقة تعني التربية السياسية والإيديولوجية للناشئة ثم تغيرت تحت تسمية جديدة هي التربية الاجتماعية والاقتصادية، أصبحت الآن وفي ظل الإصلاحات الجديدة تربية مدنية شاملة تهدف إلى تكوين مواطن المستقبل، لتكرس مبدأ المواطنة كمفهوم مدني وسلوك حضاري تُربى عليه الأجيال لخدمة التنمية الاجتماعية والبناء الحضاري، فكيف يتكسر هذا المفهوم في مادة التربية المدنية عبر مراحل التعليم المختلفة.

لقد ورد في أحد الكتب المدرسية الرسمية لمادة التربية المدنية أن هذه الأخيرة: "ترمي إلى إعداد مواطن صالح، واع، ومسؤول، يعرف حقوقه ويؤدي واجباته، ويكتسب السلوكيات المدنية التي تؤهله للاندماج في الحياة الجماعية وتُعدّه لتحمل المسؤوليات" (كتاب التربية المدنية س 1م، 2004: 03)؛ وبذلك فإن هذه المادة الدراسية تسعى إلى تمكين المتعلم من المعارف والمهارات التي تجعله مستوعبا لممارسة المواطنة المسؤولة والتكيف الاجتماعي؛ وإننا نجد هذا المعنى يتكرر في البرامج الدراسية عبر كل سنوات التعليم الابتدائي والمتوسط، رغم تغير موضوعات الدراسة من سنة لأخرى.

ولإدراك هذا المعنى نسجل أن الأهداف البيداغوجية التي تتوخى هذه المادة تحقيقها كما ورد في أحد المناهج التربوية لسنوات الإصلاح

4- بين الصور والممارسة (نقد و تحليل):

إن قياس مدى نجاح أو فشل المدرسة الجزائرية في تكوين مواطن المستقبل، وبناء مواطنة فاعلة وحقيقية؛ لا يتوقف عند حساب مقومات الريح أو الخسارة بين أسوار هذه المؤسسة، إنما يجب تجاوز هذه النظرة السطحية للغوص في أعماق الترابط والانفصام بين كل مؤسسات المجتمع، وسبر أغوار النظام الاجتماعي العام، من حيث التغيرات والنكسات على جميع الأصعدة بما فيها البعد السياسي والاقتصادي ونظام القيم الذي ينتجه أكثر فأكثر نحو التأزم والتفكك المأسوي.

فالمدرسة لا تصنع مجتمعا إنما تتفاعل معه، وتنتج ما هو كائن بصورة قبلية؛ مما يجعل منها بؤرة لاستقطاب التغيرات الاجتماعية المتلاحقة؛ فرسالة المدرسة هي النص المترجم لمفردات البناء الاجتماعي والثقافي العام، وبذلك فإن "الاقتصار على تركيز مفهوم المواطنة والتربية عليها في المؤسسات التربوية - رغم إيجابية و صحة هذا الخيار المجتمعي الاستراتيجي - يَمّ عن قصور و نقص كبيرين في تكريس قيم وثقافة المواطنة مجتمعا" (الصدوقي، MAKTOUB.COM، 2007: ص02)؛ إنما يجب أن تنخرط كل مؤسسات المجتمع الأخرى ضمن مسار بناء قيم وثقافة المواطنة.

إنّ الطفل الجزائري الذي يتلقى تربية نظرية داخل أسوار المدرسة تعلمه قيم الخير، العدل، الحرية، التعاون، الصدق، حب الوطن والخضوع لله وحده؛ يجد خارج أسوار المدرسة كل مظاهر الغش، الكذب، النفاق، المحسوبية، الرشوة، الحقرة، التزوير، الظلم و السرقة؛ فكيف تبنى المواطنة ضمن صراع ميمت بين قيم وسلوكات متناقضة ومتفارقة.

إن التفكك الأسري و نقشي القيم السلبية، والتناقضات الاجتماعية، واللاعادلة، والتفاوت الاجتماعي الصارخ؛ كلها عوامل تحد من دور المدرسة في التربية على المواطنة الفاعلة، والمتفاعلة مع نظام المجتمع العام؛ وبذلك ودون أن نصدر أحكاما قيمية، فإن التصور المثالي الذي تضمنه نصوص المناهج الدراسية حول مفهوم المواطنة يفتقد للتساوق والتكامل مع الممارسات الاجتماعية والتربوية السائدة ضمن المحيط الاجتماعي للمدرسة.

فحتى داخل أسوار المدرسة يعيش التلميذ ضمن مجال علاقات وممارسات تتناقض وما يتعلمه بشكل نظري بين طيات الكتب وأثناء الدرس؛ فما نلاحظه وما علمتنا إياه التجربة الميدانية أن العنف ضد التلاميذ بشقيه اللفظي والجسدي، وإعطاء المثال السيئ بالسلوك والممارسة أمام أبنائنا ما زال هو سيد الموقف في الكثير من المؤسسات التعليمية. وهذا رغم تشدد الوصاية في محاربة هذه الظواهر، ولكن عبر مناشير وإرساليات مدونة غير مرفودة بالمتابعة الصارمة والحزم اللازم.

5- خاتمة:

إن المواطنة هي سلوك وثقافة ومعارف، تتكرس ضمن سياق اجتماعي وثقافي مبني على قيم راسخة كالحرية، العدالة، الديمقراطية

وحقوق الإنسان، وهي ليست (موضة) تستورد وتقتنى؛ إنما هي تربية وسلوك يتأسس ضمن نظام مؤسسي متفاعل من خلال قيم شاملة متكاملة تبدأ من الدولة و تصل إلى المواطن.

إن تأسيس مواطنة حقيقية وفاعلة ضمن مجتمع مدني حي يجب أن ترتكز على وجود شراكة حقيقية بين كل مؤسسات المجتمع، مع تفعيل دور الدولة كمؤسسة شاملة تمارس تدخلات اجتماعية وثقافية واقتصادية تعيد تركيب سلم القيم، وتمارس إصلاح شامل وفعال لكل المؤسسات الرسمية والثقافية.

إن التربية الأسرية يجب أن تصبح من أخطر وأهم قضايا النظام السياسي، كما أن المدرسة يجب أن ترقى إلى مصاف المؤسسة الاجتماعية الثانية بعد الأسرة في الإعداد والتنشئة، بالممارسة و الفعل وليس بالكتابات النظرية.

إن تأسيس مجتمع مدني حي و فاعل في الجزائر يجب أن يبنى على قاعدة المواطنة الصحيحة والفاعلة، وذلك بالمزيد من الحريات المدنية، والتوعية الثقافية، وإعادة الاعتبار للقيم الوطنية الجزائرية الأصيلة مع الانخراط الإيجابي في سياق الثقافة العالمية والإنسانية.

قصير مهدي

المراجع باللغة العربية:

- (1)- الصدوقي، محمد. (2008). MAKTOUB.COM - التربية على المواطنة - تبدأ من الأعلى.
- (2)- بدوي السيد، محمد. (1986). مبادئ علم الاجتماع . الإسكندرية (مصر)، دار المعرفة الجامعية.
- (3)- بن معجب الحامد، محمد. (2008). الشراكة والتنسيق في تربية المواطنة. م.ع.س.
- (4)- بورديو، بيار. (1986). الرمز والسلطة. الدار البيضاء (المغرب): دارتوبقال.
- (5)- بورديو، بيار. (1990). الوعي بين الفرد والجماعة. مجلة الفكر العربي المعاصر.
- (6)- شروخ، صلاح الدين. (2004). علم الاجتماع التربوي. عناية: دار العلوم.
- (7)- غيات، بوفلجة. (2006). التربية من أجل الفعالية. وهران: دار الغرب.
- (8)- قصير، المهدي. (2006). دور الجامعة في بناء الوعي. وهران: رسالة ماجستير.
- (9)- كتاب التربية المدنية للسنة الأولى متوسط. (2004). الجزائر.
- (10)- منهاج السنة الأولى من التعليم المتوسط. (2003). الجزائر.

المراجع باللغة الأجنبية:

- 1)- Bourdieu, P. et Passeron J.C. (1964). Les héritiers, les étudiants et la culture. Paris, Minuit.

- 2)- Durand, J.P. et Weil, R. (1993). Sociologie contemporaine. Paris : Vigot.
- 3)- Etienne, J. et autres. (1997). Dictionnaire de la sociologie. Paris.
- 4)- Giraud, C. (1997). Histoire de la sociologie. Alger : Dar El Afaq.
- 5)- Morin, J.M. (1996). Précis de sociologie. Paris : Nathan.
- 6)- Robert, P. (1983). Dictionnaire de la langue Française. Paris.